تقنيات عدم الفهم

كانت وزارة الدفاع الأمريكية رائدة في مجال البحث في اللغات الأجنبية. منذ أكثر من نصف قرن، ويعد العسكريون من كبار مستهلكي برامج الترجمة بجميع أنواعها. نعرف أن الترجمة الآلية رأت النور في الولايات المتحدة في منتصف القرن العشرين بدافع من وزارة الدفاع المهتمة بامتلاك أنظمة تشفير وترجمة من شأنها تسهيل الاستعلام في وقت الحرب الباردة والمعارضة الشرقية/الغربية.

منذ نهاية الأربعينيات، قام المشفر وارن ويفر بتحرير مذكرة تطرح مسألة إمكانية تطبيق الترجمة الآلية مستنداً على نظرية المعلومات التي أكملها مع زميل المهنة شانون في عام ١٩٤٨م. فهو يذكر عدداً من الإشكاليات التي تشكل محاور البحث لعقود قادمة. لكن تحليله يقوده إلى تصور إمكانية نسبية في تطبيق الترجمة الآلية واستخدام محدد لتطبيقاتها. وهو بالتالي يرى استحالة بلوغ دقة وجودة ترجمة الإنسان ويدافع عن موقف قريب مما أطلق عليه لاحقاً TAO (الترجمة بمساعدة الحاسب الآلي).

إن المذكرة التي كتبها وارن ويفر عن الترجمة الآلية موجهة إلى أكثر من ٢٠٠ باحث في الولايات المتحدة، استخدمتها فرق عديدة في الجامعات الأمريكية قاعدة للعمل. لذلك، دافع إروين ريفلير، وهو مدير مجموعة الترجمة الآلية في جامعة واشنطن، منذ الخمسينيات عن فكرة ترجمة آلية من أجل استخدام واسع النطاق وليس لغايات تجريبية فحسب. أثمرت دراساته عن إنتاج أول (آلة للترجمة) مخصصة للمعالجة الآلية للغة الإنجليزية والروسية "مترجم اللغة الآلية للقوات الجوية الأمريكية"، وأطلق عليها اسم شفرة "مارك 1" «Mark I»

بفضل تمويل وزارة الدفاع الأمريكية، نشهد تنفيذ مجموعة من المشاريع هدفها المعلن الترجمة الآلية على نطاق واسع. غير أن هذه الانطلاقة العجيبة والنظرية

والتطبيقية تنتهي في منتصف الستينيات مع نشر تقرير ALPAC (هيئة الإشراف على معالجة اللغة الآلية، ١٩٦٦م) الذي أدى إلى إلغاء جذري للمساعدات الحكومية وإلى تهميش الترجمة الآلية للمشاريع البحثية الأمريكية خلال أكثر من عشرين سنة. في الحقيقة، كانت نتائج تقرير ALPAC قطعية حيث قضى "بأن الترجمة الآلية لا يمكن تحقيقها". وبالتالي، يوصي التقرير بتمويل الأبحاث المتعلقة بالأدوات التي تساعد على الاكتشاف والإقرار بالمعطيات اللغوية. لكن هذه التوصيات تبقى حبيسة الأدراج ولا تتبلور إلى مشاريع تمولها الحكومة الأمريكية.

غيرت أحداث الحادي عشر من سبتمبر والحرب في العراق المعادلة جذرياً، في مجال البحث كتطبيق صناعي. وصرفت وزارة الدفاع ملايين الدولارات من خلال عقود خاصة لتشجيع تطور أنظمة التعرف على الصوت وأنظمة الترجمة الآلية القادرة على إدارة المحادثات في الاتجاهين: من الإنجليزية إلى العربية ومن العربية إلى الإنجليزية. يحلم العسكريون بطبيعة الحال "بهذا المتكلم العالمي" المشابه لأفلام ستار تريك[١] الذي مازال، وهم متأسفون على ذلك، غائباً، وغير ممكن أن يتوفر حسب رأي المختصين في المعالجة الآلية للغات، نظراً للصعوبات المتنوعة التي من الواجب التغلب عليها قبل بلوغ ذلك.

لم تثبط عزيمة الأمريكيين، فقد جربوا في السنة الخامسة من الحرب كافة أشكال الحلول بما في ذلك الحلول الغريبة جداً. ولمعالجة عدم توافق التقنية في ميدان العمليات العسكرية، أصبحت ساحة الوغى العراقية تدريجياً معمل تصنيع فوري لتقنيات جديدة يفترض أنها تقوم على معالجة مواطن القصور البشري على المستوى اللوجستي والثقافي. وبحجة تطوير أدوات تناسب الجيش، حصلت الشركات على إذن يسمح لها

---

[١] ستار تريك أحد أهم ظواهر الخيال العلمي الأمريكي. المترجم

بالقيام بتجارب حية لأدوات لهوهم، غير مكترثين بنتيجة مثل هذه التجارب ووقعها على الجنود وسكان البلد.

عندما تتدخل التقنية في الأمر

في بداية عام ٢٠٠٧م، كنا نقرأ في الصحافة الأمريكية هذه المعلومة المؤثرة، والتي تداولها على الفور عدد كبير من الصحف الفرنسية: " منذ شهر أكتوبر عام ٢٠٠٦م، قام الجيش الأمريكي في العراق بتجربة برنامج سبّب ثورة في عالم البرامج، تقوم فكرته على الترجمة الشفهية والفورية من الإنجليزية إلى العربية. وتم إعداد هذه التقنية التي صممتها شركة IBM لكي يستطيع الجنود الأمريكيون الذين يفتقرون إلى تأهيل لغوي أن يتواصلوا مع نظرائهم العراقيين[٢]". إن هذا أمر لا يصدق.

لكن ليس هذا الأمر حالة شاذة. حيث كنا نقرأ في كل مجالات الصحافة تقريباً قبل اندلاع حرب العراق بعدة أشهر أن الجيش سوف يستطيع الاعتماد على مترجمين آليين ليس من أجل القيام "باستجواب السجناء" فحسب وإنما أيضاً "لتحديد مواقع مخابئ الأسلحة الكيماوية ".

وبذلك، نشرت وسائل الإعلام خبراً عن نظام جديد محمول للترجمة الآلية طورته وكالة DARPA الكبرى (وكالة مشاريع أبحاث الدفاع المتقدمة)، وكان حسب زعمهم في غاية الفاعلية خلال حرب البوسنة. ويُسمى تلك الجهاز «Diplomat»، وتبين عدم فاعليته بعد ندرة استخدامه من قبل القوات الأمريكية، وقلما يعتمد عليه وغالباً ما يكون له نتائج خطيرة على مستخدميه، فترجماته السيئة كانت تؤدي إلى أخطاء كلامية فادحة، وإلى طلقات متقاطعة بين حلفاء. وفاقم هذا النظام خاصة أعداد

---

[٢] لوك برونر "هل تتكلم كل اللغات"، صحيفة لوموند، في تاريخ ٢٧ يناير ٢٠٠٧م. المؤلف.

الضحايا من جنود التحالف الدولي الذين قتلتهم "طلقات نارية صديقة" ناجمة عن تحديد أهداف خاطئة بسبب نظام «Diplomat».

في زمن حرب البوسنة، قد حير هذا النظام العسكريين ولكن سرعان ما أُهمل مع انسحاب الأمريكيين وبداية "الحرب ضد الإرهاب". إن لكل حرب أدواتها.

ألو المترجم؟

وهكذا، اقترحت شركة VoxTec على الجيش تجربة نظام "المترجم المباشر على شبكة الانترنت" على محيط منطقة بغداد، إذ يتيح لأي جندي في الميدان أن يستدعي مترجماً أو مترجمين متواجدين في القاعدة العسكرية، إما لترجمة كلام مخاطبيه العراقيين، وإما ليتعامل مباشرة معهم بصفته وسيطاً ثقافياً.

إنها فكرة شيقة في وقت السلم، لكن لكم أن تتخيلوا الأوضاع التي لا تصدق في شوارع بغداد: "سيدي، أنت مخالف لقانون حمل السلاح، انتظر برهة، سوف أستدعي مترجما فورياً.... المعذرة، إنه مشغول، لا يوجد أي مترجم متاح، أرجو إعادة الاتصال لاحقاً أو انتظر على الخط....، سوف يتحدث إليك المترجم عند الانتهاء من عمله.... المتصل الآخر، من فضلك... ". إن الأمريكيين قادمون من المريخ!

يجدر القول بأن المنافسة لا تنقصها الأفكار. إذ اقترحت شركة integrated Wave Technologies أن يكون هناك نظام للمحادثات مرتكزاً على كلمات رئيسة. وبما أنه من الواضح أن المحادثات العادية شبه مستحيلة، توجه المصممون نحو أنظمة ذات إضافة لغوية ضعيفة، فهي أنظمة ترتكز على ما يطلق عليه تقريباً "منطق مبهم" في لغة الحاسب الآلي، ولكن قد ينتج عنه محادثات من خلال كلمات مفتاحية، مع أسئلة وأجوبة متوقعة من نوع: "ماذا كان لون السيارة؟ حمراء أم خضراء؟" ولكن إذا أجاب

الشخص: "عن أي سيارة تتكلم؟"، فإن النظام لا يعرف طريقة الجواب ويتوقف عن العمل، لأنه لم يتم إضافة تركيبة هذا الطلب المفاجئ للتحديد في البرمجة الأساسية للنظام. وفي الميدان، فهذا يوفر محادثات محدودة كالمثال التالي: "أنا جندي أمريكي، وأنت؟ هل أنت سني أم شيعي؟".. إذن، فأهلاً وسهلاً بالمصائب.

باختصار، اضطر العسكريون مع حرب العراق أن يجربوا كل شيء. وكانت آخر الصرخات في الوكالات الأمنية التي تفتقر كل الافتقار لمترجمين مؤهلين هي الاستعانة بالتقنية المطورة، على وجه الخصوص، لمراكز الاتصال الهاتفي في الخارج، وبالحلول المخترعة للأحداث الرياضية أو أيضاً للقنوات التلفزيونية في داخل متاجر التسوق الكبرى الأمريكية. تقدم هذه التقنية أدوات اتصال محمولة تسمح للجنود أن يتحدثوا مع نظرائهم العراقيين باستخدام المترجمين الآليين المتجولين.

وهكذا، منذ عام ٢٠٠٧م، تتزود بعض الكتائب الأمريكية في العراق بأداة باهظة الثمن. يبلغ حجمها حجم راحة اليد، وهي تعتمد على تقنية التعرف على الصوت. فيفترض أن يتعرف الجهاز على الكلمات المنطوقة ومن ثم يقوم بترجمتها آلياً وفورياً من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية وبالعكس. ولكن حتى الساعة، فالنتائج مخيبة للآمال.

ومن جهة أخرى، تعمل مراكز البحث التي تمولها الحكومة على تطوير برامج تحول آلياً إلى الإنجليزية برامج المذياع وإلى العربية ما ينشر على مواقع الانترنت. وهذه المراكز بصدد أن تطور كذلك محركات البحث التي بإمكانها استخراج المعلومة المعقدة من خلال نصوص متوفرة في لهجات هذه اللغة.

تندرج هذه الجهود البحثية في إطار خطة كبيرة رسمتها الحكومة الأمريكية، وتهدف رسمياً لإتاحة الوقت للمترجمين من البشر حتى يتوفروا على أعمال التحليل الأكثر تشويقاً وأهمية من عملية الترجمة البسيطة لترجمة وثائق كل واردة وشاردة.

هذا ما جعل المسؤولين الأمريكيين يقتنعون بأنه لن يكون هناك ما يكفي من اللغويين المؤهلين لترجمة الكميات الهائلة من الوثائق المتوفرة باللغة الأجنبية. وإذاما كان بإمكان الآلة أن تقوم بالعمل الأساسي، فهذا يسمح للمترجم أن يركز على الأعمال الذكية إذا صح القول مثل التحليل وفك الشفرة وتحويل المكالمات وإعداد ملخص.

لذلك، استثمرت شركة In-Q-Tel المتفرعة مباشرة من وكالة الاستخبارات المركزية كل ما تملك في صناعات اللغة وخاصة في المؤسسات المختصة في التقنية اللغوية. وفي عام ٢٠٠٦م، تولت شركة In-Q-Tel رئاسة شركة تقوم على تطوير برامج للقطاع الخاص قادرة على فرز واستخراج المعلومة آلياً عن طريق المكالمات الهاتفية التي تستقبلها خدمات العملاء من شركات عالمية، والتي تستقبلها الخطوط الساخنة من شركات مختلفة دولية. ولكن وكالة الاستخبارات الأمريكية ترغب باستثمار هذه التقنية لغايات استخباراتية؛ حيث قد يستخدم البرنامج نفسه في فك شفرة الأنماط الصوتية الدقيقة جداً مثل الاختلافات في اللهجات، وتغيير النطق لنفس الكلمة أو الكلمات التي يكون لها نطق قريب ولكن بمعان مختلفة.

لكي تحوز البنتاجون على هذه التقنية وتكيفها مع استخدامها الخاص بها، قامت في عام ٢٠٠٥م بإنفاق أكثر من ٢٢ مليون دولار، وذلك حسب الأرقام الرسمية المعلنة.

وفي عام ٢٠٠٦م، قُدرت عقود برامج الترجمة الآلية الممولة من البنتاجون بحوالي ٢٦ مليون دولار.

في عام ٢٠٠٧م، نعرف أن التكلفة مازالت في ارتفاع ولكن تبقى الأرقام سرية منذ ذلك الحين. نعرف فقط أن اللغات المستهدفة بصورة أولية هي العربية بكافة لهجاتها، لهجات الخليج وكذلك لهجات المغرب العربي، وأيضاً الفارسية (إيران)، والبشتون (أفغانستان) والأوردو (باكستان).

مترجم محمول

لكي تستعيد شركة Titan قوتها المالية بعد خسارتها أغلى عقد ترجمة في التاريخ (زهاء ٥ مليارات دولار)، اقتحمت الشركة ميدان الصناعة وذلك بصناعة نظام ترجمة محمول في عربات الجيش الأمريكي المصفحة "Humvee". ويحمل النظام اسماً لم يوفقوا في اختياره وهو "النبي"، ويتيح هذا الأخير للعسكريين تحديد واستهداف أفراد في الضواحي وذلك بالتقاط الاتصالات الإلكترونية للمذياع والهواتف المحمولة.

إن العربة مزودة بلاقط هوائي لقطع الاتصالات يبلغ ارتفاعه سبعة أمتار ولكنه قابل للسحب في وقت قياسي (تسعين ثانية). كما أنها مزودة بجهاز خاص للمترجم المحمول، يوضح للجنود في وقت فعلي طبيعة الاتصالات الملتقطة ويرشدهم في استهدافهم للثوار.

وقد تم فحص هذا النظام في البداية في أفغانستان مع أجهزة ترجمة محمولة في لغة البشتون، ولكن هناك نسخ جديدة مطورة من النظام تتيح لعدة عربات العمل بطريقة منسقة أو التناوب في تبادل معلومات ينقلها مترجم محمول فحسب للهجوم

على الهدف نفسه. باختصار، إنها قمة تقنية الاتصالات العسكرية ممزوجة بالتجربة البشرية للترجمة.

ومن ناحية أخرى، كسبت الشركة نفسها (Titan) مناقصة بقيمة ٥٥ ميلون دولار لتطوير نظام مشابه للقوات الجوية. وإن النظام هو في الأصل مصنوع لكي يدمج في طائرات المراقبة الجوية المشهورة بالأواكس[٣]. وفي النهاية، قامت شركة Titan مقابل مناقصة بقيمة ١٨ مليون دولار بتطوير أكثر من ١٥٠ "لعبه حربية" للقوات البحرية الأمريكية كانت مخصصة في بداية الأمر لأسطول المحيط الهادي. ويفترض أن تساعد هذه الألعاب في تدريب العسكريين في مرحلة ما قبل انتشار الجيش، سواء كان على متن القوارب، أو الغواصات أو البوارج.

جهاز يتكلم العربية

لا يني التقدم عن النمو؛ فبعد مرور شهرين على اجتياح العراق، تم تزويد جنود الفرقة ١٦ التابعة للشرطة العسكرية بأجهزة محمولة غريبة: "phraselator[٤]" ! واسم هذه العلامة التجارية هو اسم مكون في الانجليزية من phrase (وتعني "تعبير، جملة") ومن translator أي "مترجم". وحرفياً، فهو إذن "مترجم تعابير أو جمل" يفترض أن يترجم إلى العربية بشكل آلي التعابير أو الجمل الإنجليزية.

على المستوى النظري، يعد مبدأ التشغيل بسيطاً؛ حيث ينبغي أن يتعرف الجهاز أولاً على التعابير أو الجمل الإنجليزية التي ينطقها الجنود ومن ثم يترجمها بصوت عالٍ

---

[٣] نظام الإنذار المبكر والتحكم المحمول جواً. المؤلف

[٤] جهاز إلكتروني طوره الأمريكيون يقوم على الترجمة من الإنجليزية إلى العربية، ويبلغ وزنة ٥٠٠ جرام. المترجم.

إلى العربية للمخاطبين العراقيين. كما أن النشرة المرفقة بالجهاز توضح أن ما ينطق به الجهاز بالعربية يتطابق مع اللكنة العراقية!

على الورق، قد نقول: إنه جهاز إلكتروني ينبئ بالمستقبل في أفلام الخيال العلمي، غير أن الجيش طلب منذ عام ٢٠٠٥م ما يزيد على ٥٠٠٠ نسخة سنوياً مقابل مبلغ زهيد مقداره ٣٠٠٠ دولار للجهاز الواحد. إنه رزق لمؤسسة مبتدئة مثل مؤسسة VoxTec المختصة في مجال التقنية اللغوية للاستخدام العسكري. والسوق المالي صدق.

لسوء الحظ، لم يقاوم الجهاز الاختبارات الأولى في الميدان، إذ سرعان ما أهمله الجنود مطالبين بضرورة توفير مترجمين بشر بلحمهم وشحمهم. وتذرع جل الجنود بأنه لم يكن له أي فائدة تذكر خلال العمليات العسكرية. بل إنهم يرون أنه كان ذا نتائج عكسية في المواقف التواصليه اليومية. غير أن البعض حاول الاستفادة من الأداة باستخدامها للتعلم الذاتي. ولكن دون جدوى، إذ كان الجهاز phraselator غير فعال حتى لتعلم اللهجة العراقية في العراق.

وقد ذكر الجنود أن الترجمة التي ينطقها هذا الجهاز لجمل بسيطة مثل"ما اسمك؟" لا تتطابق لا مع نطق سكان الفلوجة ولا مع نطق سكان بغداد ولا مع أي نطق في أي مكان في العراق. وكتب ضباط الجيش الأمريكي في التقرير النهائي لتقييم الجهاز الذي أعدوه : "يبدو أن جل العراقيين لا يفهمون الكلمات ولا التعابير أو الجمل العربية المسجلة في الجهاز". ولتلطيف العبارة: هذا إذا آمنا بردود أفعال العراقيين العنيفة التي رواها جنود القاعدة.

تجدر الإشارة إلى أن الجهاز الذي كان في مرحلة نموذج بسيط قبل الحرب طُرح في السوق في وقت قياسي يصل بالكاد إلى سنة وذلك بضغوطات من المستثمرين ومن الطلب العسكري. وبالتالي، لم تكن النتيجة إلا مخيبة للآمال.

في الأنواع الأولى التي ظهرت، كان الجهاز يحتوي على عيوب كثيرة في تصميمه، وكان البرنامج يحتوي على مشاكل مستمرة في التشغيل. كانت الأزرار تعمل مرة وتتعطل مرة، وكانت البطاريات معطوبة. لإكمال الجدول، لم يكن الجهاز محمياً من المطر ولا من غبار الصحراء، ما يجعله غير قابل للاستخدام مع أقل زخة مطر أو عاصفة رملية. إذن، هو كان حصرياً "مساعدا" شخصياً ينبغي حفظه جيداً عن تقلبات الأحوال الجوية.

مع ذلك، لم تستسلم الشركة VoxTec Internationalالمصنعة لـphraselator والتي تقع في مدينة أنابوليس في الولايات المتحدة. بل بالعكس من ذلك، استمرت في تطوير الجهاز أملاً في بيعه بسعر أغلى أيضاً على الجيش الأمريكي وذلك عندما يكون عائده المادي أفضل، خاصة بعد إدراج عدد كبير جداً من التعابير أو الجمل في الإنجليزية والعربية.

غير أن تجربة بسيطة بينت استمرار وجود مشكلتين كبيرتين: الأولى تكمن في أن المتحدثين الذين سُجلت أصواتهم كانوا من المهاجرين في الولايات المتحدة، وكردستان تعد مسقط رؤوسهم، وهي منطقة يختلف نطقها عن بقية مناطق العراق. المشكلة الثانية تكمن في أن التعابير المسجلة في الجهاز لا تتطابق مع استخدام السكان المحليين، غير أنها تعكس غالباً المهارة اللغوية التي يتمتع بها اللاجئون الذين تركوا العراق قبل خمس عشرة سنة إثر حرب الخليج، وأحياناً حتى قبل أربعين سنة بعد الثورة التي أسقطت

الملكية في العراق.نقول باختصار: إن تطوير هذه الأدوات يعد معضلة على كافة المستويات.

على المستوى اللغوي، كان الجهاز المُسوق يحتوي في الأصل على ٧٠٠ تعبير عربي فحسب في الذاكرة مع ما يقابلها في الإنجليزية الأكثر اصطلاحاً. وكان المستخدم الناطق بالإنجليزية يتكلم مع الجهاز بنطق واضح لتعبير إنجليزي وكان يُفترض في الجهاز أن يعطي على الفور التعبير المكافئ بالعربية ولكنه ينطق بلكنة عراقية. كما كان الجندي يستطيع أن يختار من قائمة آلية التعبير الذي يرغب سماع نطقه.

بكل تأكيد، فهذه تعابير أساسية لا يُفترض فيها أن تحتوي على غموض في المعنى. ولكن قد همش المصممون أهمية النطق في النتيجة المنشودة لبعض التعابير المألوفة. وهكذا، مثل سؤال من نوع: "أين تسكن؟" قد يُنطق على أنه طلب بسيط أو على أنه جملة استفهامية بنبرة قاسية أو أيضاً على أنه تعبير تهكمي يسخر من مكان سكن المخاطب. وكل هذا لم يحظ بدارسة ولم يدمج في مرحلة التصميم مما جعل الجهاز عديم الفائدة، بل كان خطراً في بعض المواقف الحساسة وخاصة عند نقاط التفتيش وحواجز الطريق.

جهاز يتكلم أفضل من شخص عربي!

في وقت انشغال مؤسسة VoxTec في تصحيح نموذجها المعطوب، استغلت ذلك شركة أخرى منافسة لكي تقترح على الجيش الأمريكي بديلا لـ phraselator يفترض فيه أن يعالج كافة المشاكل التي تعرض لها الجهاز السابق الذي يعود لعصور الديناصورات.

تسمى الشركة المنافسة Integrated Wave Technologies، واقترحت أن يكون هناك سماعة للترجمة توضع في جيب اللباس العسكري. وبذلك، يستطيع الجندي أن يتكلم دون إشغال يديه بالجهاز الذي يترجم مع ذلك آلياً كلام الجندي وينطق بالعربية.

إن مبادئ عمل الجهاز أكثر تطوراً من نظيره phraselator. إذ يكفي أن ينطق الشخص موضوع الطلب، مثلاً "تفتيش منزل" لكي يقوم الجهاز بتطوير الطلب ويقوم بصياغته إلى العربية الفصحى، مثل: "نحن هنا لتفتيش منزلكم. ابقوا في هذه الغرفة من فضلكم. هل تخبئون أسلحة لديكم؟".

في الواقع، يحتوي البرنامج الذي يقوم بتشغيل الآلة على عدد محدود من "السيناريوهات" أو المواقف النموذجية، تتمحور كلها حول الأوامر العسكرية المشفرة وما يوازيها بصيغة تعابير اصطلاحية باللغة العربية. ومع هذا فإن المشاكل على المستويات اللغوية والثقافية هي نفس مشاكل Phraselator التابع لشركة VoxTec، مثل: كون العراقيين لا يفهمون كلمة مخالفة للأصوات التي ينطقها الجهاز، علاوة على أنهم غير مستعدين نفسياً لاستقبال أوامر من آلة تافهه تتكلم مكان جندي مسلح هو نفسه غير قادر على جعل أوامره نافذة.

هذا لم يمنع الجيش الأمريكي في عام ٢٠٠٥م أن يطلب من هذه الأجهزة ١٣٠٠ نسخة مقابل سعر أعلى بصورة طفيفة من ٢٥٠٠ دولار للجهاز. كما شهدت شركة كاليفورنيا الصغيرة التي لا تضم إلا ٢٠ موظفا طفرة سريعة بالرغم من كونه منتجاً رديئاً حسب الرأي العام وغير فعال وعزف عنه المستخدمون.

لفت أحد جنرالات الجيش النبهاء الانتباه إلى أن أكبر عيب في هذه الأجهزة علاوة على خللها التقني أنها كانت تعبر عن التوجه العسكري بالاكتفاء بإعطاء أوامر قاسية، بينما يفترض عليها بالأحرى ترجمة الأوامر في لغة مقبولة عند السكان المحليين.

من الصعب إعطاء أوامر مباشرة لأشخاص لا يفهمون لغتك، إذن كيف نتصور أن هؤلاء الأشخاص ينفذون أوامر صادرة من أداة إلكترونية بنطق خاطئ. ؟

في الواقع، لماذا لم يخطر ببال مصممي هذه الأجهزه بُعد هذا التواصل بين الثقافات، مع أنهم اعتادوا على العمل مع العسكريين إلا أنهم لا يدركون التغيير الكبير الذي حدث في مهمات الجيش الأمريكي منذ عام ٢٠٠٣م والتي أصبحت تضم من مهمات الشرطة جزءاً كبيراً من التواصل مع السكان المحليين.

جنود لا يفقهون شيئاً في اللغة الأجنبية وثقافتها وجدوا أنفسهم فجأة في اتصال مباشر مع السكان المدنيين في أفغانستان كما في العراق، وهوما قد غير كلياً النظرة إلى الجندي ومهنته. ويخضع هذا الجندي لمهام المناصحة أو الإرشاد عند حواجز الطريق، ولمهام عالم نفس في قواعد فرز المعتقلين. فكل هذا يتطلب تفاعلاً خطابياً يتجاوز بصورة كبيرة إطار أوامر عسكرية حصرياً. ويقوم غالباً الجنود خلال تفتيش المنازل بحثاً عن أسلحة مخبئة ببيع السلع، وهم مجبرون على تهدئة روع أهل كل منزل وذلك بطمأنتهم على حسن نواياهم وبشرح مهتمهم بكل بساطة. وفي هذا النوع من المواقف، لا يكفي التكرار بلغة عربية تقريبية و صوت موجز : "يا سيدتي، هدئي من روعك من فضلك، يا سيدتي، هدئي من روعك من فضلك، يا سيدتي، هدئي من روعك من فضلك ". إذ ينبغي أكثر بكثير من ذلك لسلب القلوب والعقول.

أجهزة ذكية في عالم من الوحوش

توجه مستشارو البنتاجون، لإدراكهم للفجوة الثقافية من خلال مشهد الواقع المرير في الميدان، نحو وكالة البحث الفيدرالية المرموقة DARPA لإيجاد حل ذكي.

وبالتالي، في عام ٢٠٠٦م طرحت برنامج بحث يفوق ٢٠,٨ مليون دولار مخصص لـ "تقنيات الترجمة".

كنا نعتقد أننا عدنا إلى البدايات الهائجة للترجمة الآلية تماماً بعد الحرب العالمية الثانية في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تريد أن تحصل بسرعة على نظام ترجمة فعال للغة الروسية وقد طرحت برامج قوية للأبحاث وذلك قبل أن يعيق تقرير ALPAC (عام ١٩٦٦م) هذه الانطلاقة المتفائلة. وبفضل حرب العراق، استعادت الترجمة الآلية مكاناً اختيارياً في برامج البحث الأكاديمية العامة والخاصة على الأقل في الولايات المتحدة. ولكن هذه المرة، لا يخدع العسكريون أنفسهم. فهم يستبعدون أن تقوم الآلة محل الأنسان، ولكنهم يريدون بكل تواضع أن يكون بمقدورها المساعده في إنجاز مهمتهم في ظروف ملائمة.

ولإدراك وكالة البحث الفيدرالية DARPA للتحديات، قررت رفع المبلغ المرصود " للتقنيات اللغوية " إلى حوالي ٥٠ مليون دولار لعام ٢٠٠٧م.

اتجه المسؤولون الأمريكيون إلى وكالة DARPA لأن باحثيها قضوا سنتين بين عام ٢٠٠٣م وعام ٢٠٠٥م في إقامة قاعدة بيانات ضخمة تحتوي على آلاف الساعات التي تحتوي على تسجيل محادثات بين متكلمين عراقيين. قام هؤلاء الباحثون بدراسة الأصوات واللكنات والمخططات اللغوية والصوتية، وكذلك التعبيرات المستخدمة كثيراً في هذه الاتصالات الحقيقة والتلقائية، ويكون الهدف الحصول على برنامج للتعرف على الأصوات في اللهجة العراقية أولاً، ومن ثم في العربية الفصحى ثانياً.

بعد ذلك، وضعت وكالة DARPA في متناول عدة شركاء هذه القاعدة السرية من البيانات والفريدة من نوعها، وذلك بفرضها عليهم مثل قائمة الشروط لتشغيل كل شيء في إطار نظام صوتي مدمج به ترجمة آلية.

في عام ٢٠٠٦م، كان الشركاء الذين تم اختيارهم هم مؤسسة خاصة مختصة في تقنيات الترجمة (SRI international)، وهي مجموعة بحثية ليس لها هدف ربحي (International Business Machines Corp.)، وأخيراً جامعة كارنجي مولون المرموقة في مدينة بتسبرج في ولاية بنسلفانيا.

كان دافع اختيار إشراك هؤلاء الشركاء في إطار مثل هذا المشروع أن كل واحد منهم قد قام بتطوير نظام ترجمة يرتكز على خوارزميات رياضية تسمح بإدارة الخطابات باللغة العربية وترجمتها بعد ذلك إلى الإنجليزية حتى لو كانت هذه الخطابات مشوشة أو ملفوظة لفظاً سيئاً.

في كل الحالات، هي ليست تعابير مسجلة مسبقاً ولا أصوات مخزنة في ذاكرة الآلة، ولكنه نظام توليد آلي للكلام مستخدماً صوتا مركباً ذكورياً.

غير أن تشغيل النظام منوط بالتحدث بالدور: متحدث واحد فقط في الوقت نفسه لتفادي كل غموض ولبس. ولكن هذا بعيد كل البعد عن واقع المحادثات العادية، خاصة في العالم العربي الذي لا ينظر فيه إلى قطع كلام المخاطب على أنه قلة احترام وسوء تربية.

في عام ٢٠٠٦م، سارع عملاق الحاسب الآلي IBM بتطوير النظام المعني وبإرسال ٣٥ نسخة لفحصها في الميدان في العراق. ويُنظر إلى الجهاز على أنه "يقوم بتسهيل التواصل". لكن لم يعد العسكريون متفائلين مثلما كانوا في البدايات، إذ رأوا عرض بعض النماذج الواعدة نظرياً ولكن اتضح أنها غير فعالة كلياً عند الاستخدام. لذلك، لم يعودوا يسمحون بفحص الجهاز إلا في المكاتب أو في أوضاع لا خطر فيها. وهذا على أيه حال مطابق لطلب المصنعين المصرين على ضرورة فحص الجهاز في

أماكن يقل فيها الإزعاج وذلك لتسهيل التعرف على الصوت لأنه يفترض أن النظام "يتعلم" من هذه الأوضاع الحقيقية لتحسين النتيجة النهائية.

في نهاية حملة تقييم متوسطة، ارتأت وكالة DARPA في نهاية عام ٢٠٠٦م أن "هذه التقنية مازالت غير مهيأة للانتشار على نطاق واسع". وذلك يعزي لسببين رئيسين: من جهة فإن برنامج التعرف على الصوت ليس بالقوة الكافية، ومن جهة أخرى يفتقر نظام الترجمة بمعنى الكلمة إلى معارف لغوية لكي يستطيع تقديم ترجمات مناسبة.

علاوة على ذلك، يقدر العسكريون أن ٨٥٪ فحسب هي درجة دقة ومنطقية النظام مقارنة باحتياجاتهم في الميدان. وبذلك، يكون الجهاز قادرا على أن يكاد يتعامل مع ما يقارب العشرين تعبيرا أو جملة من أصل ٣٠٠، وينبغي تكرار الجملة نفسها أربع أو خمس مرات قبل أن يتعرف عليها الجهاز. فنحن بعيدون كل البعد عن الصواب.

في السحاب...

خلال النصف الثاني من عام ٢٠٠٦م، قام الأمريكيون على متن طائرات الاستطلاع التابعة لهم باختبار برنامج قادر زعماً على الترجمة الفورية للمحادثات من العربية إلى الإنجليزية وبالعكس. يسمى البرنامج «IraqComm» ويتمتع بخاصية أنه يستخدم في أبسط جهاز حاسب آلي صغير يباع في المحلات التجارية.

وكان الجهاز الذي طورته شركة SRI الدولية مزوداً بسماعات رأس صوتية وميكرفون تسجيل لتحسين جودة الصوت وزيادة دقة الترجمة.

ويسمح هذا البرنامج بتسجيل محادثات شخص في الوقت الذي يتكلم فيه، ومن ثم نقلها إلى اللغة المراد الترجمة إليها، قبل نطق الترجمة في الاتجاهين في العربية كما هو في الإنجليزية. وهكذا، يفترض أن يتيح البرنامج وجود محادثة أكثر عفوية وانفتاحاً مما تتيحه البرامج الأخرى التي لها ذاكرة ترجمة محددة مسبقاً وبشكل إجباري.

بشكل ملموس، هذا يتم بالطريقة التالية: يتكلم الشخص في الميكروفون، ويقوم معيار التعرف على الصوت، المسمى بـ DynaSpeak بجمع الكلمات المنطوقة ومحاولة تحليلها. وتظهر نتيجة التعرف على الصوت على الشاشة في شكل جمل يستطيع المستخدم قبولها أو تصحيحها وذلك بالاختيار من قائمة من الكلمات والجمل يقدمها النظام. أخيراً، يترجم الجملة آلياً وذلك بالضغط على الزر (T) ليقوم بالترجمة.

كما يتيح البرنامج كتابة الجملة المراد ترجمتها مباشرة على جهاز الحاسب الآلي. ولكن من البدهي أن يكون العسكريون مهتمين أولاً بوظيفة التعرف على الصوت التي تبدو لهم مفيدة للغاية ليس فحسب لأن هذا يريح أيديهم في الميدان، بل إن هذا يتيح أيضاً بصورة محتملة إجراء حوارات عن طريق الهاتف مع مخاطب عراقي.

إن البرنامج قام على تطويره في بداية الأمر معهد علوم المعلومات في جامعة جنوب كاليفورنيا في لوس أنجلوس. ويحتوي قاموس ثنائي اللغة على أربعين ألف كلمة بالإنجليزية وخمسين ألف كلمة باللهجة العراقية، وجل الكلمات مختصة في المجال العسكري والطبي، مجالين أساسيين للجيش الأمريكي في العراق.

وطُور البرنامج IraqComm بناء على طلب وكالة DARPA لاستخدام تكتيكي للترجمة على الأراضي العراقية. كانت قائمة الشروط تحدد وجوب توفر نظام محمول يمكن استخدامه "لترجمة محادثات ذات طابع عسكري أو طابع طبي في بيئة صاخبة".

لم يخضع برنامج IraqComm للتقييم من قبل وكالة DARPA ولكن الجيش الأمريكي المهزوم قدَّم طلباً مهماً...بصورة رسمية لأهداف التقييم. وحدد جهاز الصحافة التابع للجيش في بيانه أن هذه الالآت "ليست بمستوى ذكاء المترجمين البشر، وحتى مع قدرتها على الانتشار في كل مكان و زمان". إذن، فالبرهان وجود كل شيء للاستغناء عن المترجمين النادرين الذين مازالوا يعملون لصالح الجيش ويكلفون أكثر بكثير من بدلائهم الإلكترونيين.

غير أن العسكريين نسوا الشيء المهم، وهو أن تجاوز الحاجز اللغوي قد يكون مسألة حياة أو موت في العراق. ويناضل الجنود والطاقم الطبي والمدنيون العراقيون يومياً لينقلوا لزملائهم معلومات ضرورية. إن الاعتقاد بأن آلة خوارزمية تستطيع الاضطلاع بهذه المهمة هو بكل بساطة ضرب من ضروب اللامنطق واللاوعي.

لغات كثيرة عندنا أكثر مما ينبغي

أمام انفجار المعلومات المنتشرة في العالم أجمع، فالمقاصد اقتصادية في نفس الوقت وجيوسياسية وأمنية. ولم تعد الإنجليزية تمثل إلا جزءا قليلاً يساوي تقريباً اليوم ٣٥٪ خلافاً للتسعينات حيث كانت الإنجليزية تغطي شبه محتوى الانترنت.

هذا بالطبع يدفع الأمريكيين إلى أن يولوا اهتماماً كبيراً باللغات الأجنبية، غير أن هذا بدافع فائدة واقعية حيث لا تكون فيها الجهود مكرسة نحو تعلم هذه اللغات، وإنما نحو الترجمة الآلية في اللغة الإنجليزية لمحتوى المعلومات المنشورة في هذه اللغات. من باب المفارقة، ليست الترجمة في هذا الاتجاه علامة انفتاح على تنوع اللغات في العالم، ولكنها تستخدم في استعادة الهيمنة التي تمارسها منذ عهد قريب على الويب.

في الحقيقة إن ترجمة لغة آلياً وبصورة تقريبية أسهل من العمل على تعلمها خلال سنوات. وبذلك، يظهر أن ترجمة محتويات الانترنت المتوفرة بالإنجليزية على أنه حل واقعي وضرورة أمنية. ليس هناك خلف هذه الخطوة النفعية أي اهتمام بالحفاظ على التنوع، حتى رغم إفادتها بصورة غير مباشرة للمدافعين عن التنوع اللغوي والثقافي.

إن إحدى منارات المشاريع الموضحة لهذه الخطوة هو برنامج الترجمة الآلية التابع لعملاق الانترنت قوقل Google ؛ حيث اقترح قوقل الذي يعد في الوقت نفسه محرك بحث ومستفيداً من العولمة اللغوية، أداة ترجمة آلية بين الإنجليزية واللغات الأخرى تسمى ترجمة قوقل. ينهل هذا الأخير من الويب كما ينهل من ذخيرة نصوص متعددة اللغات حيث يتم فرز المكافئات الأكثر شيوعاً واقتراحها للمستخدمين.

ترتكز هذه الطريقة ذات الطابع الإحصائي على أمهات ذخائر النصوص المرجعية ومن ضمنها الوثائق المكتوبة باللغات المتعددة التابعة للأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي ومنظمة التجارة العالمية.

في نهاية عام ٢٠٠٦م، قام المعهد الوطني للمعايير والتقنية (NIST) بتقييم النظام المقترح من قبل قوقل العربية والصينية، ونتج عن ذلك أن النتائج التي تم توصل إليها بشأن الترجمة الآلية كانت هي الأفضل وتحتل المرتبة الأولى أمام البرامج التقليدية لزعماء السوق مثل برنامج سيستران وترادوس وسوفتيسيمو.

بالتالي، اقتحمت شركات دولية مثل ياهو و أي بي إم عالم التقنيات اللغوية مقتنعة أن هذا النوع من الابتكارات لا يمكن الاستغناء عنه مستقبلاً في مجتمع المعلومات والاتصال في عصر العولمة حيث يزداد حجم الترجمات. وأيضاً، شجعتهم في هذا المجال مشاريع الحكومة الأمريكية.

مشروع "الترجمة المفتوحة"

في عام ٢٠٠٥م، طرحت الحكومة الأمريكية مشروع "الترجمة المفتوحة" (Open translation) رسمياً لمواجهة التحديات اللغوية التي أوجدتها "الحرب ضد الإرهاب".

يستوحي رواد هذا المشروع فكرتهم من تطور الانترنت نفسه ومن البرامج المسماة بـ "المصادر المفتوحة" (Open source)، مثل نظام التشغيل Linux، وذلك لنقل الفكرة نفسها في مجال الترجمة، لأن هذا النظام المنافس لنظام التشغيل ويندوز ثمرة تعاون دولي وتطوعي لعشرات من مهندسي الحاسب الآلي المطورين في العالم.

البرهان لبرنامج "الترجمة المفتوحة" هو نفسه وعوضاً عن توظيف فريق من المترجمين قد يكون عمله محدد أو بالتالي غير كافٍ، وذلك لتحليل وترجمة وثائق حساسة في غاية السرية، إذ يعول المسؤولون الأمريكيون على الاستثمار التطوعي للملايين من مستخدمي الانترنت المولعين بالترجمة والراغبين باقتحام هذا العمل كما يقوم به آخرون لمواضيع مختلفة ومتنوعة.. كما يتمنى أن يقوم مستخدمون آخرون للانترنت بمراجعة ترجماتهم وتحسينها، أسوة بما تقوم به برامج "المصدر المفتوح".

وهكذا، في بداية عام ٢٠٠٦م قد سمح الكونجرس الأمريكي للمدير الوطني للاستخبارات جون نيجروبونت بأن يضع على شبكة الانترنت ملايين الصفحات التي تم الحصول عليها في العراق في مختلف الوزارات العراقية إبان عهد صدام حسين أو عند أشخاص مستقلين متهمين بـ"انتمائهم لحزب البعث" أو أيضاً الوثائق التي تم العثور عليها بحوزة الثوار المعتقلين أو القتلى.

فهذه مبادرة فريدة من نوعها في عالم الاستخبارات السري. ويعول أعضاء مجلس الشيوخ على المصادر غير المنتظرة من مستخدمي الانترنت لمساعدتهم في الترجمة ومعرفة مضمون المراجع الورقية المسلمة لهم. ويستطيع كل شخص لديه معرفة باللغة

العربية تحميل ما يشاء من الوثائق وترجمتها بطريقته. وكذلك يحق للمترجمين مستخدمي الانترنت نشر ترجمتهم كما يرغبون دون قيود. إن هذا لم تسبق رؤيته في عالم التجسس.

بالطبع، يمتنع المسؤولون الأمريكيون عن نشر أسرار الدولة ويؤكدون أن كافة الوثائق المنشورة على الانترنت قام بقرائتها أولاً خبير استخبارات عربي (بشكل عمودي). غير أن كثيرا من القراء وجدوا مفاجآت ووثائق على أية حال يفترض ألا تقع في أيدي العامة التي لا خبرة لها بذلك مثل أدلة تصنيع أسلحة كيماوية أو تقارير أجهزة الاستخبارات العراقية في عهد صدام حسين أو أيضاً ملف المقاتلين الأجانب في العراق، المشهور باسم وثائق "سجل سنجار".

عند طرح هذا البرنامج، كان المدافعون عن المبادرة يعتقدون خاصة العثور في هذه الوثائق على إثباتات مكتوبة قد تبرر مسبقاً اجتياح العراق، لأنه لم يتم العثور، في أرض الواقع، على أي سلاح دمار شامل، ومنظمة القاعدة لم تزدهر في العراق إلا بعد عام ٢٠٠٣م. كان المحافظون يريدون خاصة "تحرير سلطة النت" لحث المواطنين على البحث بكل نشاط عن الأدلة المنتظرة بفارغ الصبر.

يجيب معطلو المشروع بأن هذا ما هو إلا عملية دعائية فحسب تشنها أجهزة الاستخبارات بهدف إشغال العامة، خاصة المواطنين الأمريكيين من أصول عربية، بوثائق ليس لها قيمة تذكر، وذلك لكسب الوقت اللازم لمتابعة الحرب في العراق، بل حتى امتداداها إلى بلاد أخرى في المنطقة مثل سوريا أو إيران المعروف أنها على القائمة السوداء لإدارة بوش.

يجدر القول بأن القوانين الاتحادية الأمريكية لا تفسح كثيراً المجال إلى تحرٍ فعلي "مفتوح" للمواطنين كما تزعم السلطات ذلك، لأن الوثائق التي تكشف عن هوية

الأفراد ممنوعة النشر على الانترنت. وكذلك لا يمكن نشر الوثائق التي تضم أسماء عراقيين عُذبوا في عهد النظام السابق على الانترنت؛ لأن القانون يحمي هوية الضحايا. وحتى الوثائق التي تضم أسماء أمريكيين من أصول عراقية فهي ممنوعة من النشر بسبب قوانين الحريات العامة التي تحمي الهوية الشخصية.

في الواقع، تتعلق مجمل الوثائق المنشورة على الانترنت بالعمل الادراي لنظام صدام حسين، وكشفها لا يعيق البته عملية نشر الديمقراطية في العراق. بل على العكس من ذلك، إن هذا العمل الوثائقي لا يكون إلا مفيداً، كما كان في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية أو أيضاً في جنوب أفريقيا بعد نهاية التمييز العنصري.

غير أنه تبقى هذه الوثائق بشكل كبير محط اهتمام مجموعة مستخدمي الانترنت الأمريكيين من أصول عراقية الذين تشكلوا بشبكة افتراضية لاستخدام شبكة الانترنت في نشر ترجمات ثنائية اللغة تحتوي على أكبر عدد ممكن من المعلومات عن النظام السابق.

لكن من البديهي أن العمل المنجز لا يُراعي ولا يتقيد بمعايير الترجمة الأكثر بدائية، نظراً للخلفية الثقافية والأكاديمية لهؤلاء المترجمين المستقلين ذاتياً. ولنذكر على سبيل المثال ترجمات أطباء الأسنان العراقيين من بغداد على موقع الويب iraqthemodel.com. هذه الترجمات رديئة الترجمة منشورة بصورة مجهولة خشية من الانتقام، وهذا يترك الباب مفتوحاً على مصراعيه لكل التجاوزات التي تمنع كل مساءلة لمترجمين مستعارين لأنه لا يوجد أي متابعة لترجمات منجزة بهذه الطريقة ولا أي إمكانية للنقد والتصحيح.

والأدهى والأمر من ذلك أن هناك عدة ترجمات بدهياً خاطئة ومتلاعب بها تتداولها أحياناً وسائل الإعلام المشهورة جداً وذلك لدعم هذا أو ذاك الموضوع الغريب

فيما يتعلق بالوضع في مثل هذا الإقليم أو بحياة العراقيين بشكل عام. وباختصار، تم بشكل عام انتقاء الترجمات المنشورة لإعطاء صورة واحدة جزئية فحسب عن الوضع ومنحازة بصورة طبيعية، ولا تُصلح التفسيرات الخاطئة الخطرة التي ارتكبها الهواة الغافلون أي شيء في الوضع. والأمثلة على ذلك لا تُعد ولا تُحصى.

حسن النوايا وسوء الترجمات

جوزيف إِس أمريكي مسيحي من أصول لبنانية، ومن المؤيدين لبوش. ويعمل مهندس حاسب آلي، ولكنه أيضاً ناشط ضد المسلمين في أوقات فراغه، يقدم خدماته إلى وكالة الاستخبارات الأمريكية ولم يكن يخفي ذلك على مدونته الشخصية.

عندما قررت الحكومة الأمريكية نشر الوثائق التي جمعتها من العراق على الانترنت باللغة العربية، جعل جوزيف إس نفسه مترجماً وعكف على الفور على ترجمتها إلى اللغة الانجليزية وقام بنشر ترجماته على موقع محافظ (www.freepublic.com) مقتنعاً - بصفته مواطناً أمريكياً - بإسهامه بجهد في حرب الأمة.

إن أول ترجمة قام بنشرها على الانترنت هي تقرير أجهزة الاستخبارات العراقية بشأن مقابلة مع مخبر أفغاني، وهو تقرير كان يقترح حضور أعضاء من القاعدة إلى العراق قبل الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م. ولكن بالرغم من كون ترجمة الوثيقة موجهة توجيهاً واضحاً ومتلاعباً بها، فإنها لا تثبت أياً من هذه الادعاءات.

إلا أن جوزيف إس يدعو على مدونته كل "العرب الأمريكيين" إلى مساعدة الحكومة في ترجمة الكمية الهائلة من الوثائق التي قام الجيش الأمريكي بجمعها في العراق: "وإنه واجب على كل شخص يعرف العربية أن يترجم هذه الوثائق"، هذا ما

كتبه على مدونته. ولقد تداولت الصحافة الأمريكية التابعة لحزب اليمين كلامه وضخمته باعتباره مثالاً لـ "الوطنية العربية الأمريكية".

في الواقع، هو لا يقوم إلا بإسداء خدمة إلى معلميه المخلصين في وكالة الاستخبارات الأمريكية. وقد نشر مسؤولو أجهزة الاستخبارات الأمريكية هذه الوثائق على الانترنت، آملين أن يحذو آلاف المتكلمين العرب حذو جوزيف إس وأن يشعروا بالواجب نفسه تجاه أمريكا، ذلك لأنه ليس هناك ما يكفي من المترجمين المتاحين لترجمة الكم الهائل من الوثائق المعلقة التي بحاجة لترجمتها، وحتى إذا كان هناك مترجمون، فهذا يستغرق سنوات لإنجاز مثل هذا العمل، في حين أن هناك حاجه ملحة لمعرفه محتوى هذه المراجع.

كما أن هناك هدفا آخر لهذه الحملة الدعائية التي هي جزء من الحرب النفسية ومن التلاعب بالناس. وهي أن وكالة الاستخبارات الأمريكية كان لا بد لها من تمرير بعض الوثائق المفبركة لإقناع الناس بشرعية الحرب في العراق، خاصة الوثائق المتعلقة بأنشطة القاعدة والبرنامج المزعوم لتطوير أسلحة الدمار الشامل.

منتجات أخرى مشتقة من الحرب

يُصاب بالدهشة الذين لا يعرفون المنتجات اللغوية المشتقة من حرب العراق من عدد النسخ المباعة مما يسميه الأمريكيون "اللغة البصرية". فهي لا تتعلق بأدوات تكنولوجية، ولكنها بكل بساطة كتيبات صغيرة مدعمة بالصور والتوضيحات مخصصة لتسهيل التعرف البصري لبعض العناصر الفيزيائية التي قد يواجهها الجنود عندما يتنقلون في بيئتهم العراقية، ولكنهم لا ينجحون دائماً في مجرد التعرف عليها، عوضاً عن فهمها. يفترض أن يعطى "هؤلاء المترجمون البصريون" معنى لما يراه الجنود

لمساعدتهم على أن يتواصلوا بشكل أفضل مع مخاطبيهم العراقيين، و كان ذلك فيما يتعلق بلوحات المرور المحلية أو بالأحرى لوحات مكتوبة بالعربية.

كما تتعلق "اللغة البصرية" التي يعطونها معنى بالأشخاص لأن العراقيين يستخدمون إيماءات وإشارات مختلفة عن التي يستخدمها الأمريكيون. إن الصور الموضحة لهذه الفوارق المرئية تكون محررة وأحياناً يصحبها تعبير من شأنه توضيح الإشارة أو الإيماء، خاصة في المواقف الحرجة أو الخطيرة (نقطة تفتيش، تفتيش منزل، إلخ).

باختصار، فإن "المترجم اللغوي البصري" أداة أولية للتواصل الثقافي، قام على تطويرها بتهور أصحاب دور نشر انتهازيين تحت غطاء وطني. وهذه الأداة مخصصة لاستخدام الجنود الأميين والذين يجهلون جهلاً مطبقاً الخصوصيات الثقافية لمجال تدخلهم ولعدوهم المبين.

نُشرت العديد من كتب الترجمة لمساعدتهم في مهمتهم. لكن بالرغم من الإرادة الصادقة التي تحرك مؤلفي الكتب، فهذه المؤلفات ليست معيناً قوياً في الميدان، وليس لها في أحسن الظروف إلا "أثر الغفل[٥]" حسب تعبير صاحب رتبة عليا أمريكي. وهذا يطمئن فحسب العسكريين أن يكون بحوزتهم في أمتعتهم مثل هذا النوع من الكتب غير المفيدة كلياً في بيئة معادية.

[٥] هو التأثير (الشِفاء، أو الاستجابة الإيجابية أوالسلبية) الذي يبدو وكأنه نتيجة لاستخدام الغُفْل(عقار كاذِب)، والتغيير عادة ما يكون مفيدا ويفترض أنه ينجم عن ثقة الشخص في العلاج أو عن الإِدْرَاك المسبق لما يفترض أن يحدثه عقار تجريبي ما. وكثيراً ما يستخدم الغُفْل في الدراسات التجريبية للأدوية، فمثلا يكون هناك مجموعتان من الأفراد المجموعة الأولى تتناول الدواء الحقيقي والمجموعة الثانية تتناول الغُفْل وذلك لمعرفة مدى التأثير الحقيقي لتجربة الدواء على متناوليه. المترجم.

وهكذا، إن مترجم اللغة البصرية هو كتاب موجز يرتكز على مبدأ الربط التخطيطي لصورة وكلمة. وهذا المبدأ هو في الأساس نشاط تعليمي مألوف في الأوساط العسكرية للتأهيل السريع في العمليات الخارجية. وبذلك، نجد هناك صور أسلحة وعربات وأشخاصاً وصوراً تحمل تسميات بالعربية الفصحى أو باللهجة العراقية.

كما أن هناك بعض "السيناريوهات" المترجمة مثل اعتقال رهائن أو البحث عن معتقلين أو أيضاً تنظيم حركة المرور، وباختصار فهي مجموعة من التعابير الأساسية المفترض أن تفيد في أعمال الشرطة اليومية وفي التنقلات القصيرة في الميدان على حد سواء. وفي النهاية، يحتوي هذا الكتاب على الكلمات والتعابير الأساسية المكتوبة صوتياً في ثلاث لغات: باللهجة العراقية، وباللغة الكردية وباللغة الفارسية.

إن مترجم اللغة البصرية لعمليات البحرية الخاصة في العراق هو كتاب موجه فحسب للقوات البحرية التي تشكل أضخم الكتائب الأمريكية في العراق. فهو مصمم مثل دليل "الكل في واحد"، أي أنه يتكلم عن مواقف تواصلية في "لغة بصرية" (صور تحمل ترجمة) تتعلق بكل أشكال المهمات التي ينبغي على جنود القوات الخاصة القيام بها في الميدان: التصدي للكمين، وإطلاق سراح الرهائن، والبحث وملاحقة الثوار، والتعرف على الأهداف، إلخ.

علاوة على ذلك، يضم الدليل لمحة مختصرة تاريخية عن العراق يفترض فيها إعطاء فكرة عامة عن الثقافة المحلية والتاريخ الوطني. وأخيراً، يضم تعابير نموذجية للأوامر والمراقبة باللهجة العراقية ومكتوبة صوتياً لكي يستطيع الجنود نطقها بصورة صحيحة في الموقف الاتصالي. ناهيك عن تحديد أن النطق العربي من خلال كتابات صوتية غير مفهومة كلياً أو البتة عند عامة العراقيين.

إن مترجم اللغة البصرية العسكرية الطبية في العراق هو دليل مخصص أولياً إلى الطاقم الطبي الأمريكي. ويهدف إلى تسهيل التواصل مع المرضى والجرحى العراقيين الذين يبلغ عددهم المئات في كل شهر. وهو موجه إلى طب الطوارئ ومشاكل الاحتياجات الطبية في المستشفيات. وتقدم بعض العناوين سيناريوهات تشخيص طبي يفترض فيها أن يطرح الطبيب أسئلة مكتوبة صوتياً بالعربية على مرضى عراقيين لمعرفة الأعراض الفعلية، و فرط الحساسية، ومصدر الجروح والانتكاسات، إلخ. باختصار، كل ما يسهم في التعرف على المرض وفي تحديد العلاج المناسب وذلك بالاستناد هنا أيضاً على "اللغة البصرية" (صور تم التقاطها في الميدان للمرضى وللأعراض). وكما يحتوي الدليل على ما يقارب العشرين نشرة للأدوية مترجمة إلى العربية الفصحى، ولكن دون فائدة تذكر عند الممارسة.

إن دليل لغة النجاة البصرية في العراق هو لأول وهلة الكتاب الأكثر أهمية للعسكريين الأمريكيين في العراق لكونه يعالج إجراءات النجاة. ومن باب المفارقة، هذا الدليل غير متوفر إلا في اللغة العربية وبالتالي فهو غير متاح كلياً لأغلبية الجيش. علاوة على ذلك، فهو غير مستخدم إلا في مناطق البلد الناطقة بالعربية، ويكون كردستان العراق مستبعداً.

إن "اللغة البصرية" للبحث عن المشتبهين، وللكمائن وللتفتيش عن الأسلحة وللتحقق من الهوية تكون باللغة العربية الفصحى الحديثة فحسب. وتكون الكلمات الرئيسة للحياة اليومية (عند الشراب، والطعام والتنقل) وكذلك التعابير الأكثر شيوعاً باللغة الانجليزية ومن ثم تترجم إلى العربية الفصحى وتكتب صوتياً بالحروف اللاتينية. فالكل يفترض أن يُتيح للجنود الأمريكيين معرفة مبادئ التواصل الذي يمكنهم من "النجاة" في بلد جله من الناطقين بالعربية. إن هذا مضحك ودليل على السذاجة.

إن "دليل اللغة البصرية المخصص للتدريب العسكري في العراق" مصمم لمعالجة إشكاليات التواصل الموجودة بين القوات الأمريكية ونظيراتها من قوات الأمن العراقية. وظهرت صعوبات كبيرة في تبادل المعلومات والتجارب في ظل غياب العدد الكافي من المترجمين البشر، وذلك منذ الشهور الأولى للحرب بين العسكريين من الجهتين، وهذا ما دفع الجيش أن يوصي بهذا "المساعد في التدريب".

يحتوي "هذا الدليل" على توضيحات ثنائية اللغة للمهمات الرئيسة التي ينبغي أن يستعد لها الجيش العراقي والحرس الوطني. وتكون الأوامر مترجمة إلى العربية وإلى الكردية وإلى الفارسية، ويصحب هذه الأوامر كتابات صوتية لتسهيل النطق.

بالرغم من رغبة كوادر التأهيل الصادقة الأمريكيين، تتمحور عامة جلسات التدريب حول تصحيح النطق بالعربي الخاطئ كلياً لمخاطبيهم العراقيين، الذين لا يفوتهم أن يسخروا من الجهود غير المنتظرة من هؤلاء "الجواميس" (هذه الكلمة التي يستخدمها العراقيون ليصفوا عامة الأمريكيين). لكن نظراً لأهمية اللغة في الثقافة العربية، فإن التوجيه الأمريكي يكون محل صدق حتى قبل بداية التدريبات (سعر الكتاب: ١٤,٥٠ دولار).

إلى جانب هذه الكتب المشكوك في فائدتها، هناك مجموعة من "الأدلة" الأخرى للثقافة العراقية محتواها فارغ بشكل مذهل ولكنها مع ذلك نفدت بسرعة، إذ كان الطلب من الجنود كبيراً.

يحمل واحد من "الأدلة" الأكثر مبيعاً العنوان الجميل "للبطاقة الذكية للثقافة العراقية". في الحقيقة، هذا يكون تعاقب للكليشات والصور النمطية لثقافة المسلمين ولعادات مختلف المناطق العراقية. ويتم تعيين التقاليد والعادات المشار إليها على خارطة

البلد، بحيث يكون لدى الجندي فكرة عن المكان عندما يذهب إلى هذه المناطق ويستطيع أن يعرف أين هو مقابل خاصة المعالم الرئيسة التاريخية.

ناهيك عن تحديد أن هذا "الدليل" ليس لديه أي شيء من الذكاء ولا يقوم غالباً إلا بنشر وترسيخ آراء مغلوطة عن كل جاليات العراق. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب متوفر بإصدارين: إصدار باللغة الانجليزية للجنود الأمريكيين، وإصدار باللغة الاسبانية للمجندين من أصول مكسيكية. وهذا يضمن أكبر انتشار للأحكام المسبقة في وسط الجيش الأمريكي.

على موقع الويب للناشر، نرى ردود أفعال "عفوية" فيما يخص الفائدة الكبرى من هذه الأعمال في الميدان. وتستحق بعض التعليقات التنويه بسبب الفرق الشاسع بينها وبين الواقع.

وهكذا يكتب رقيب أول من القوات البحرية هذا:

"صباح الخير من الصحراء! نحن نستخدم "مترجمكم للغة البصرية في العراق" لكشف المواد المتفجرة المحضرة على الفور خاصة بفضل خرائط بلدكم، وقد سُلمت لنا في اليوم الآخر. ولدينا عدة خرائط أخرى أيضاً، فهي أداة في غاية الفائدة لنا. ويعرف العراقيون بأن هذه الخرائط معنا، ويطلبون منا غالباً بأن نعرضها لهم. وبذلك، يستطيعون أن يشيروا على ما يريدون أن يقولوه لنا. إن التعابير الموجودة في كتابكم منطقية أيضاً لكون أصدقائنا العراقيين اللطفاء يتوصلون إلى فهم واستيعاب ما نقول لهم. كما أكرر شكري." (وكيل رقيب، فيلق القوات البحرية التابعة للولايات المتحدة، أغسطس ٢٠٠٦م).

في المنتديات العراقية، جعلت "هذه الخرائط" وهذه "الإرشادات المدعومة بصور وإيضاحات" من الجنود الأمريكيين أضحوكة السكان المحليين مثل الثورة المسلحة.

وتقارنهم التعليقات الأكثر لطفاً بصبيان أغبياء يتنزهون بكتيبهم المدعوم بصور وتوضيحات بحثاً عن ثوار، وذلك من نوع : "في ذلك اليوم، قابلت جاسوساً أمريكياً أراني كتيبه الصغير المليء بالصور ليسألني إذا ما قد رأيت إرهابياً في المكان...".

أرسل جندي في مشاة البحرية، يعمل قائدا لسرية داخل العراق، على موقع الناشر التعليق التالي : "أنا حالياً تابع لسرية القوات البحرية المتمركزة في منطقه معزولة. ونعاني من إشكاليات عويصة في التواصل مع السكان المحليين. والجنود يقومون باستمرار بدوريات ويراقبون الضواحي، غير أنه ليس لدينا، لسوء الحظ، ما يكفي من المترجمين المحليين لمساعدتنا. كما أن منتجات شركتكم قد تكون مفيدة فائدة كبيرة لجنودي. هل بإمكانكم أن ترسلوا لي عدة نسخ من مترجمكم البصري الذي يخص العراق؟ إذا كان ذلك ممكناً، نود الحصول على نسخة من المنتجات المذكورة أعلاه. وفي الحقيقة، سوف يساعدنا هذا على تجاوز المواقف الصعبة التي لا يكون بها مترجم." (وكيل رقيب، فيلق القوات البحرية التابعة للولايات المتحدة، أكتوبر ٢٠٠٦م).

إن البريطانيين ليسوا بمعزل عن البقية لأن عقيدًا في جيش صاحبة الجلالة أرسل التعليق التالي الذي لا نعرف مطلقاً إذا كان صادقاً أو ساخراً، لكونه يتطرق لاستخدام ناجح لهذه الأدلة لكن ليس لها أي علاقة مع هدفها الأول :

"استخدمت أدلتكم اللغوية البصرية مع أطفال في جنوب العراق وحققت فيها نجاحاً باهراً. فهم يعشقون تصفحها وهذه طريقة رائعة للتحدث معهم، نظراً للاهتمام الذي يبدونه للمحتوى. ويضحكون كثيراً عندما يشاهدون الصور ويستمتعون بالتعليق عليها. وينظرون للصور على أنها شيء مضحك وبالتالي هذا يساعد في التواصل معهم، إذن هي أداة مفيدة جداً". (عقيد في الجيش البريطاني، رئيس مركز العمليات البشرية.).

في النهاية، من المشوق التنويه بأن "هيئة الخدمات المسلحة"، في مجلس الشيوخ الأمريكي، في "سجل السماح الضرائبي" لسنة ٢٠٠٤م، ارتأت بأن: "مترجمي اللغة البصرية يتيحون للجنود العاملين تحسين تواصلهم وذلك بكسر الحواجز اللغوية... ولذلك، تدعم الهيئة استخدام مترجمي اللغة البصرية هؤلاء وتحث وزارة الدفاع على توسيع استخدام هذه الأداة الضرورية بسرعة".

على إثر هذا الرأي بالسماح، شهد عدد كتب "الترجمة البصرية" الموجهة للجيش زيادة سريعة مكونة نوعاً لا سابق له ولكنه لا فائدة منه.